أَلتعبيرُ القُرْآنِيُّ في وَصْفِ القُلُوبِ المؤْمِنَةِ

أ. م. د. زينب كامل كريم
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

فحوى البحث

بحث لغوي – تفسيري خاضت فيه السيدة الباحثة وبشكل مبسّط موارد المعنى التي قصدتها آيات من القرآن الكريم لمعاني القلب والصدر والفؤاد. ولم تتعرض لكلمة آخرى وهي (اللب) وجمعها (الألباب) وهي قرينة القلب في المعنى ولكنها تستعمل في موارد مختلفة. وقد اقتصرت مصادر البحث على المعاجم اللغوية وبعض كتب التفسير.

وخُتم البحث بادراج أهم النتائج التي توصلت اليها السيدة الباحثة وبمسرد لأهم المصادر.

المقدمة:

إن القران الكريم الكتاب السماوي الذي راعى اللغة ولهجاتها والناس وأحوالهم والتشريع وأصوله والعبادات ومتعلقاتها، فكان للحرف فيه وقع وحكمة وللفظ ميزان ورتبة وللنظم ضوابط ربانية وللآيات أحكام وشد وللسور أسباب ومقتضيات؛ ومن هنا نجد أن القران الكريم اعتنى بالإنسان مؤمنا كان أو كافرا.

فوجه الخطاب الرباني إليه وإلى عقله ونفسه وجوانحه وجوارحه وقبل كل ذلك إلى قلبه، ذلك الإعجاز الكبير المضاف إلى الاعجازات المتعددة المتمثلة في القرآن الكريم.

فإلى جانب الإعجاز اللغوي والبياني والطبي نجد الإعجاز القلبي في القرآن الكريم فالقلب في القرآن ليس تلك الآلة المجردة التي لها وظيفة الانقباض والانبساط والتقلص والارتخاء، وإنما يخاطبه القرآن في آيات كثيرة ويسند إليه الأفعال في مواطن عدة بل يجعله محورا لكثير من الأشياء و مسؤولا عنها.

من ذلك فالقرآن الكريم يسند اليه الاثم والكسب والتعمد من عدمه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] وفي [سورة الاحزاب: ٥] يقول: ﴿ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

فقرن الاثم والكسب والتعمد بالقلب وكأن القلب كائن آخر داخل الانسان فهو يسلم ويمرض، وفي القلب يكمن عمى البصيرة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[سورة الحج: ٤٦].

فالقلب وفقا لنظرة القرآن عين الروح والنفس كما العين عين البدن وجارحته.

وفي آية أخرى يجعل القلب هو العقل تماما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [سورة ق: ٣٧] والقلب في رأي المفسرين هو العقل أي لمن كان له عقل[1] فيفكر به لأن محل التفكير

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٣٢.

هو العقل وليس القلب.

وهنا يكمن الاعجاز فكيف يعمل القلب عمل العقل كما أخبرنا القرآن الكريم بقوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

فمن الناحية الطبية يذهب العلماء الى أن هناك تغذية عصبية للقلب توجه وتؤثر فيه وتنشطه وتبطئه حسبما تريد وتبعا للاشارات الصادرة لها من المراكز العليا للمخ[٢].

إلا أن هذا الكلام يعني أن للقلب علاقة بالمخ والمخ يشرف على عمله في حين أن الاطباء يذهبون الى أن القلب يعمل في غياب هذه المؤثرات اثناء التخدير الكلي فبينما تتوقف كل الاعضاء التي تتغذى بالاعصاب والعضلات كذلك اثناء غياب تأثيرها أو شللها بالتخدير الكلي العام الا أن القلب مع قليل من الاعضاء يعمل في غياب الاعصاب بنشاط واقتدار.

ويأتي الطب الحديث ليكشف لنا ذلك، حيث اكتشف حديثا أن هناك خلايا عصبية شبيهة بالخلايا العصبية التي في المخ.

وهذا يدل على أن القلب له استقلالية عن المخ وعلميا له قابلية التفكر والتعقل وحسب ما جاء في القرآن الكريم حيث نوه بذلك صريحا قبل الاف السنين في الاية الكريمة التي ذكرنا.

بهذا تحدى القرآن الكريم الحاضر بما جد فيه والمستقبل بما سيجد فيه مما يتمخض عن العقل ويعاينه ويبلغه العلم ولسوف يعجز العقل و الفهم والعلم حاضرا ومستقبلا كما عجز العقل والفهم والعلم أولا.

وقبل أن نلج في ثنايا البحث سنحاول الوقوف على لفظ القلب والفؤاد والصدر وهي الالفاظ التي استعملها القرآن الكريم في وصف أحوال القلب، وسمي القلب بذلك لتقلبه[٣] في الاهواء والاراء وهذا معروف في اللغة أما الفؤاد فهو من فأد الخبزة في الملة يفأدها فأدا شواها وفأد اللحم يفأده فأدا وافتأده فيها شواه.

والفئيد ما شوي وخبز على النار وإذا

(٢) الاعجاز الطبي في القرآن الكريم: ٢٢٣.

(٣) ينظر لسان العرب: (قلب).

شوى اللحم فوق الجمر فهو مفأد وفئيد وفأدت الخبز ة إذا جعلت لها موضعا في الرماد والنار لتضعها فيها وقيل الفئيد النار نفسها[٤].

والمفتأد موضع الوقود ومنه الفؤاد ويسمى القلب بذلك لتفـــؤده وتوقده أو على سبيل الموضع إذ القلب موضع ومحل الاحساس تتضمنه المشاعر وما يحر منها فحرارة القلب هي الفؤاد وقيل وسطه وقيل غشاء القلب والقلب حبته[٥] وسويداؤه، وقيل هو القطعة من الناس بلغة قريش[٦] فيكون معناه القطعة من القلب أو هو كما يعبر عنه الفلذة.

وجمع الفؤاد أفئدة وقيل جمعه أوفدة فقدمت الفاء وقلبت الواو ياء فكأنه قال واجعل وفـودا من الناس تهـوي اليه[٧] في قـولـه: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ومـن هـنـا نـجـد أن الـقـرآن الكريم استعمل الفؤاد في المواضع التي يـراد التعبير عن حـرارة القلب وشغفه كما في الآية الماضية الذكر وكقوله كذلك في [سـورة الانعام: ١٢٥] حيث يقول: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ فلم يقل قلب أم موسى لأنه أراد أن يعبر عن حر فراقها وتعلقها بولدها ولما هذا البعد من ألم وحرارة.

أما الصدر فهو من الاصـل: الصاد والـدال والـراء، لـه أصـلان صحيحان أحدهما يدل على خلاف الـورد والاخر صدر الانسان وغيره[٨] فالاول من قولهم صَدَرَ عن الماء وصَدَرَ عن البلاد.

أما الاخر فالصدر للانسان والجمع صـدور قـال تعالى ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ثم يشتق منه فالصـــدار ثوب يغطي الرأس والصـــدر والتصدير حبل يصدر به البعير لئلا يـرد حمله الى خلفه[٩] والصـــدر على ذلك معروف فهو كالصندوق للقلب، يحيطه حفظا له.

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس: (فأد)، القاموس المحيط: (فأد).
(٥) ابن منظور، اللسان:)فأد).
(٦) التبيان في تفسير غريب القرآن: ١/ ٢٥٣.
(٧) تفسير القرطبي (القرطبي الجامع لاحكام القرآن): ٩/ ٣٧٣.
(٨) مقاييس اللغة: (صدر).
(٩) ابن منظور، اللسان (صدر).

وقد استعمله القرآن ليدل على القلب كقوله في [سورة العنكبوت: ١٠] ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قلوبهم ولكن قد نجد أن لفظ الصدر أعم وأشمل من القلب وهو أجدر على الحفظ فهو كما أسلفنا كالصندوق وحينما يضيق القلب ويصل الى الصدر فكأن الانسان يصعد الى السماء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[سورة الانعام: ١٢٥] إذن لكل لفظ مستوى دلالي استعمل فيه ليكون معبرا ودقيقا في الاستعمال القرآني ووصف أحواله في القرآن عبر الفاظ دقيقة.

أما في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [سورة الأحزاب: ٤] فالعلماء يتناولون هذه الآية في باب العقائد إذ يرمز بها إلى أن الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر من أفق واحد، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد، وإلا نافق، واضطربت خطاه. وما دام لا يملك إلا قلبا واحدا، فلا بد أن يتجه إلى إله واحد وأن يتبع نهجا واحدا وأن يدع ما عداه من مألوفات وتقاليد وأوضاع وعادات.

إنه قلب واحد، فلا بد له من منهج واحد يسير عليه. ولا بد له من تصور كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه. ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيم، ويقوّم به الأحداث والأشياء. وإلا تمزق وتفرق ونافق والتوى، ولم يستقم على اتجاه.

ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث ويستمد فنونه وتصوراته من معين رابع، فهذا الخليط لا يكوّن إنسانا له قلب. إنما يكون مزقا وأشلاء ليس لها قوام(١٠).

وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقا، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها، صغيرا كان هذا الموقف أم كبيرا. لا يملك أن يقول كلمة، أو يتحرك حركة، أو ينوي نية، أو يتصور

(١٠) ينظر أوضح التفاسير، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (١٤٠٢)، المطبعة المصرية، ط، ١٩٦٤: ٦.

تصورا، غير محكوم في هذا كله بعقيدته- إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه -لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد، يخضع لناموس واحد، ويستمد من تصور واحد، ويزن بميزان واحد.

لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله: فعلت كذا بصفتي الشخصية. وفعلت كذا بصفتي الإسلامية، كما يقول: رجال السياسة أو رجال الشركات. أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام، إنه شخص واحد له قلب واحد، تعمره عقيدة واحدة.

أو أنه لا يجتمع الكفر والإيمان، والضلال والهدى، والمعصية والطاعة؛ في قلب واحد. وما دام الإنسان بقلب واحد -لا يتسع إلا لشيء واحد -فلا يكون إلا مؤمناً أو كافراً، ضالاً أو مهتدياً، عاصياً أو طائعاً. ولا طاقة لإنسان أن يجمع بين الضدين؛ فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

وعن الطبرسي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام (ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) يحب بهذا قوما؛ ويحب بهذا أعداءهم وبهذا يتضح أن أهل البيت يحبون من عاداهم ومن يحب أعداء أهل البيت لا يمكن أن يحبهم فإن الله وضع قانوناً وهو ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه وبهذا تنكشف الكثير من الحقائق التي يحاول الكثير من الناس إخفاءها بادعائهم المحبة لأهل البيت عليهم السلام، قال الامام علي عليه السلام: لايجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان، إن الله لم يجعل من قلبين في جوفه، فيحب بهذا ويبغض بهذا، فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار، لا كدر فيه؛ فمن أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شارك في حبنا حب عدونا فليس منا، ولسنا منه والله عدوهم وجبرئيل وميكائيل والله عدو للكافرين)[11].

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم قال لرجل؛ ولم يقل لبشر أو لانسان والذي يعبر عن الجنس، وكلا الجنسين ينظويان في التماس العقيدة والمنهج، وبتدبر للطبيعة البشرية نجد أن المرأة قد يجتمع في جوفها

(١١) ينظر كشف الغمة: ٢/ ٢٣.

قلبان، قلبها وقلب جنينها الذي في جوفها بخلاف الرجل إذ يستحيل أن يكون له ذلك.

هذا في باب العقيدة، إلا أني آليت أن أدرس تلك الألفاظ التي استعملها وأسندها القران الكريم للقلب؛ دراسة لغوية في دلالة الالفاظ القرآنية.

فجمعت الالفاظ بعد أن جردتها من مواضعها في القرآن الكريم، واتخذت الترتيب الألفبائي منهجا لايرادها، ثم شرعت في دراسة كل لفظة بعد أن أستشهد بآي من القرآن الكريم لمواضع ورودها بالسورة والآية التي وردت فيها.

وكأي دراسة لغوية استعنت بكتب المعجمات العربية في مراجعتي لأصول اللفظة لينطلق التحليل بعد ذلك لكتب التفسير القرآني وكتب المجاز والوجوه والفروق وغيرها، وكثيرا ما نجد أن القرآن الكريم كان دقيقاً جدا في الاستعمال وتوجيه دلالة اللفظة توجيهها قرآنيا.

وقد قصرت دراستي ها هنا على دراسة التعبير القرآني لوصف القلب وخصصت القلوب المؤمنة إذ أن الألفاظ التي يستعملها القرآن مع المؤمنين هي حتما غير الألفاظ التي يخص بها الكفار والجاحدين ومن هنا كان البحث للقلوب المؤمنة وكنت قد درست وصف القرآن الكريم للقلوب الكافرة في بحث منفصل[١٢]، والله ولي التوفيق.

التأليف:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣] وقال ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة الأنفال: ٦٣] وقال أيضاً ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة التوبة: ٦٠].

ألف: الألف من العدد معروف مذكر والجمع ألوف والإلف وألوف يقال ثلاثة آلاف إلى العشرة ثم ألوف جمع الجمع،

(١٢) ينظر التدرج الدلالي لوصف القلب في القرآن الكريم/ القلوب الكافرة، مجلة كلية التربية، للأبحاث الانسانية، جامعة بغداد، المجلد (٢١) العدد (١)، ٢٠١٠م.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣] وألف الشيء ألفا و الآفا وألفانا وألفه لزمه وألفه إياه ألزمه وألفت بين الشيئين تأليفا وتآلفا وأتلفا وألفت بيتهم تأليفا إذا جمعت بينهم بعد تفرق وألفت الشيء تأليفا إذا وصلت بعضا ببعض ومنه تأليف الكتب[١٣] إذا وصلت بعضه ببعض.

والفت القوم إيلافا، أي: كلمتهم إلفا يقال ألف مؤلفة، أي: مكملة. وقد ألف الله عز وجل بين المسلمين فزالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة[١٤] والمعنى: أي أصبحتم أخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة في الله[١٥] فألف الله بالإسلام بين قلوبكم فجعل بعضكم لبعض أخوانا بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه فالنعمة هي الإسلام[١٦].

وألف بينهما تأليفا أوقع الألفة، والمؤلفة قلوبهم من سادة الغرب أمر النبي ﷺ بتآلفهم وإعطائهم ليرغّبوا مَنْ وراءهم بالإسلام[١٧].

الإنابة:

قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٣٣].

يقال: ناب الأمر نوبا ونوبة نزل ونابتهم نوائب الدهر، والنائبة المصيبة واحدة نوائب الدهر وقيل النائبة النازلة.

و النوب بالفتح البعد، و النوب أن يطرد الإبل باكرا إلى الماء فيمسى على الماء ينابه، والحمى النائبة التي تأتي كل يوم.

وناب فلان الله تعالى وأناب إليه فهو منيب أي أقبل وناب ورجع إلى الطاعة

(١٣) ينظر اللسان لابن منظور، محمد بن مكرم، دار صادر، ط١، بيروت: (ألف)، تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الزبيدي (ت١٢٠٥ هـ) مجموعة من المحققين، دار الهداية (ألف).

(١٤) تفسير القرطبي، ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر بن فرج الانصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت٦٧١ هـ) تح: احمد البردوني وابراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة ٤/ ١٦٤.

(١٥) تفسير البيضاوي، (انوار التنزيل واسرار التأويل): ٢/ ٧٤.

(١٦) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن): ٤/ ٣٣، وينظر معاني القران: ١/ ٤٥٤.

(١٧) ينظر القاموس المحيط: (ألف).

وقيل ناب لزم الطاعة وأناب تاب ورجع. فالإنابة الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة ومنيبين راجعين إلى ما أمر الله به[١٨].

وقد وصف القرآن الكريم القلب بالإنابة فقال (بقلب منيب) أي بقلب تائب من ذنوبه راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه، أي: منيب إلى ربه مقبل عليه[١٩].

واتفقت كتب التفسير على هذا المعنى[٢٠]، وبعضهم فسره بأنه القلب السليم الذي فيه خشية الله[٢١] بقول ابن الجوزي: (أي راجع إلى الله مخلص وقيل المنيب المقبل على الطاعة وقيل السليم، أي: راجع إلى الطاعة طاعة الله عن معصيته[٢٢] وقيل راجع بسريرة مرضية وعقيدة صحيحة ونخلص من كل ذلك أن السليم غير المنيب فالإنابة تتضمن معنى الرجوع عن المعصية معصية الخالق أو ما شابه ولذا اقترنت في الإنابة الخشية، أي الخوف من الله وهذه الخشية تدفع القلب إلى الإنابة أي: العودة إلى النية الخالصة فيتوب القلب ويتوب عن المعصية ولذا فكل له استعماله الخاص به والمعبر عنه في سياقه.

التثبيت:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٠] وقال في [سورة البقرة: ٢٦٥] ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ﴿ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ ﴾ [سورة النساء: ٧١] وقال أيضا ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [سورة هود: ١٢٠].

التثبيت عموما: الإقامة في المكان يقول ابن منظور: ثبت الشيء يثبت ثباتا وثبوتا، فهو ثابت وتثبيت وثبت وأثبته هو وثبته بمعنى.

يقال: ثبت فلان في المكان يثبت ثبوتا، فهو ثابت إذا أقام به؛ وأثبته السقم إذا

(١٨) لسان العرب: (ناب).
(١٩) تفسير الطبري: ٢٦/ ١٧٣.
(٢٠) ينظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٧/ ١٤٩/ ٧/ ٦٠٤، تفسير الواحدي (الوسيط في تفسير القرآن المجيد): ٢/ ١٠٢٤.
(٢١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢ -٤/ ٢٢٩.
(٢٢) زاد المسير في علم التفسير: ٨/ ٢٠.

لم يفارقه[٢٣] والثبات عند الراغب ضد الزوال يقال ثبت يثبت ثباتا[٢٤]، أما في المقاييس[٢٥] ثبت كلمة واحدة أصلها دوام الشيء؛ وقسم اللغويون التثبت بالبصر أو البصيرة تارة أو بالأمر والرأي، ويمكننا القول أن كل دلالات التثبيت تعني العزيمة على البقاء.

فبالبصر نقول: رجل ثبت في الحرب وأثبت السهم؛ وبالبصيرة يقال: فلان ثابت عندي، أي: ثبت ونبوة النبي ثابتة، والإثبات والتثبيت، تارة يقال بالفعل لما يخرج من العدم إلى الوجود ونحو أثبت الله كذا وتارة لما يثبت بالحكم فيقال أثبت الحاكم على فلان كذا؛ وتارة لما يكون بالقول سواء كان ذلك صدقا أو كذبا[٢٦].

وقد يمتد معنى التثبيت إلى ما أبعد من معنى البقاء والدوام إلا وهو معنى التأكيد والتقوية و الإصرار في البقاء على المكان أو على الأمر أو على الحكم والقول؛ فثبته يكون بمعنى قويته، وأثبته عرفه حق المعرفة[٢٧].

وبخلافه ثبته عن الأمر كثبطه، وفرس ثبت ثقف في عدوه والثبيت الفارس الشجاع ومنه تثبت في الأمر واستثبت تأنى فيه ولم يعجل واستثبت في الأمر إذا شاور[٢٨]، ورجل ثبت أي مشدود بالثبات ورجل ثبت، أي ثابت القلب وورد الثبوت في القرآن الكريم معارا لثبوت النفس والقلب والقدم.

وبما أن الثبات يتضمن معنى الإقامة تطلب أن يكون الثبوت في المحل، فكان أن نسب الثبوت للنفس التي محلها الجسد وللقدم التي محلها الثبوت على الأرض والفؤاد الذي هو محل القلب كما أن الصدر هو محل الفؤاد[٢٩].

فجيء بصيغة الأمر (ثبت) الذي خرج إلى معنى الدعاء على سبيل المجاز لكونه صدر من رتبة أدنى إلى رتبة أعلى (من العباد إلى خالقهم)، وقد يكون

(٢٣) لسان العرب: (ثبت)، قاموس المحيط: (ثبت).
(٢٤) المفردات للراغي الاصفهاني: (ثبت).
(٢٥) مقاييس اللغة: (ثبت).
(٢٦) المفردات: (ثبت).
(٢٧) قاموس المحيط: (ثبت).
(٢٨) تاج العروس: (ثبت).
(٢٩) تفسير القرطبي:/ ١٨٩.

التثبيت بالتقوية في القلب.

ومن هنا كان معنى (التثبيت) في الآية الكريمة (لنثبت به فؤادك)، أي: لنقوي به قلبك فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه[٣٠].

وقيل أي: لنقوي لتقويته فؤادك على حفظه وفهمه[٣١] أو قد يكون نقوي به قلبك لتعيه وتحمله[٣٢] أو الاستزادة فقوله (ما نثبت به فؤادك) فتثبيت الفؤاد تسكين القلب ليس للشك ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب كان القلب أسكن وأثبت أبدا[٣٣]، فالمعنى يكون: أي نزيدك به تثبيتا[٣٤] وهذا من قبيل، قوله: (بلى ولكن ليطمئن قلبي).

فثبات القلب الوصول به إلى درجة المعرفة بالله واليقين بالإيمان وهذا ما يذهب إليه المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾، يقول القرطبي: ثبوتها مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس أي: لا تعقدوا الإيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي: عن الإيمان بعد معرفة الله هذه استعارة للمستقيم الحال في شر عظيم ويسقط لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر[٣٥].

وأخيرا، نقول: إن القرآن الكريم ثبت قلب المؤمن وروحه وقدمه وهذا يعني أن القرآن طلب للمؤمن المسلم التثبيت روحا (بالقلب و النفس) وبدنا (بالقدم) وهذا يدل على الثبات التام و الكامل.

الخشوع:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحديد: ١٦].

يقال في اللغة، خشع يخشع خشوعا،

(٣٠) اتقان ما يحسن من الاخبار الدائرة على الالسن: ١/ ١٢١، تفسير الواحدي: ٢/ ٧٧٨.

(٣١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٢١٦، تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٨، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٣١.

(٣٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٨.

(٣٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٨٦.

(٣٤) معاني القران: ٣/ ١٩٠، تفسير البغوي، معالم التنزيل: ٢/ ٤٠٧.

(٣٥) تفسير القرطبي: ١/ ١٧٢.

وأخشع وتخشع رمى ببصره نحو الأرض وخفض صوته؛ وقوم خشع متخشعون، وخشع بصره إذا انكسر[٣٦] أما اختشع إذا طأطأ صدره وتواضع، وقيل: إن الخشوع قريب من الخضوع إلا أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخذاء والخشوع في البدن والصوت والبصر[٣٧].

قال تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ [سورة المعارج: ٤٤]، وقال عز وجل: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [سورة طه: ١٠٨] بمعنى سكنت فكل ساكن هو خاشع، وعن ابن الأثير: الخشوع في الصوت والبصر، والخضوع في البدن و التخشع التضرع وقيل الخاشع الراكع في بعض اللغات[٣٨].

و التخشع لله، الإخبات والتذلل؛ فنسب الخشوع للقلب في القرآن الكريم لأن القلوب تذل وتلين لذكر الله وما نزل من الحق[٣٩]، أي: تذل القلوب بسماع صوت الحق.

فكأن قلب المؤمن يدق ويلين بذكر الله بخلاف قلب الكافر، فإنه يزداد قسوة وجفاء.

وما القلب إلا انعكاس لنفس كل منهما وقد يكون الخشوع من التواضع الذي عند المؤمن وفي نفسه.

وبذلك فسر الخشوع، في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٥] يعني المتواضعين[٤٠].

أو قد يكون خوفا وتضرعا لله عز وجل وبذلك فسر، في قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠]، أي: خائفين[٤١] أو إنه قد يكون التذلل السمة الواضحة على المتذلل، قال تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ [سورة القلم: ٤٣].

وهذه ثلاثة مصادر تعكس الخشوع على القلب المؤمن، وهي: التواضع، الخوف، التذلل؛ وحتما هذه سمات المؤمن الصادق اليقين ولذلك فحري بقلب

(٣٦) لسان العرب: (خشع).
(٣٧) مقاييس اللغة: (خشع).
(٣٨) لسان العرب: (خشع)، تاج العروس: (خشع).
(٣٩) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٤٨، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: ٢٧/ ١٧٩.
(٤٠) المصدر نفسه: ١٧/ ٢٤٨.
(٤١) روح المعاني: ٢٧: ١٧٩.

المؤمن أن يخشع لله عز وجل وتكون هذه سمته الطاغية.

الربط:

قال تعالى: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[سورة الأنفال: ١١] ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الكهف: ١٤] ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة القصص: ١٠].

جاء في الصحاح[٤٢]: ربط الشيء أربطه وأربُطه، عن الاخفش: أي شددته وقيل يربطه ربطا، فهو مربوط و ربيط، والرباط ما يربط به والجمع رِبُط.

وربط الدابة يربطها ربطا وارتباطا وارتباطها، ودابة ربيط مربوطة، والمربط والمربطة ما ربطها به والمَرْبط و المَرِبط، الموضع الذي تربط فيه[٤٣].

والمُرابطة مُلازمة ثغر العدو، وهو أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره، وكل معد لصاحبه، ومنه ربط جأشه رباطة بالكسر اشتد قلبه وربط الله على قلبه ألهمه الصبر وقواه[٤٤]، وربط القلب جاء في القرآن الكريم مرتبطا بتثبيت القدم، فيكون الربط هنا بالروح والجسد والمعبر عنهما بالقلب والقدم.

ولم يبتعد المفسرون في تفسير الربط عن اللغويين، إذ فسره الكثيرون بالهام الصبر والإيمان فعن النحاس: ربطنا بالصبر والثبات[٤٥]، وعن قتادة: ربطنا بالإيمان و السدي بالعصمة وقيل بوعد الله[٤٦].

وأصل الربط: الشد المعروف واستعماله فيما ذكر مجاز؛ وفي الأساس من ربطت الدابة شددتها برباط؛ والمَربط الحبل ومن المجاز ربط الله تعالى على قلبه صبره. وفي الكشف لما كان الخوف والتعلق يزعج القلوب عن مقارها ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

(٤٢) الصحاح: (ربط).
(٤٣) لسان العرب: (ربط).
(٤٤) القاموس المحيط: (ربط).
(٤٥) معاني القران: ٥/ ١٦٢، تفسير ابن ابي السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم: ٧/ ٥، التبيان في اقسام القرآن: ١/ ٢٧٢.
(٤٦) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٥٦، صحيح البخاري: ٤/ ١٧٥٠.

﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾، قيل من مقابله (ربط الله على قلبه) إذا تمكن وثبت[٤٧]، ومما تقدم نفهم أن الالوسي وضع في مقابل الربط بلوغ القلوب الحناجر إلا أن بعضهم يضع الربط في مقابل الختم، فالرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه، ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب، ولا هو المعهود في القرآن؛ بل المعهود استعمال الختم على القلب في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن الكريم.

وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فالمسوغ له في الدعاء أن يقول اللهم اربط على قلبي، ولا يحسن أن يقول اللهم اختم على قلبي[٤٨].

ولذلك جاء الربط في معرض تثبيت فؤاد أم موسى لان الموقف تطلب الثبات والجلادة وإنزال الصبر على قلبها، فعن البيضاوي[٤٩]: (ربطنا على قلبها بالصبر والثبات لتكونن من المؤمنين المصدقين بوعد الله أو من الواثقين بحفظه.

وجواب لولا محذوف، أي: لولا أن ربطنا لأبدت أو أنها كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها[٥٠]، وذلك كله يعني شددنا على قلبها وقويناه لتثبت[٥١].

فالربط؛ بعد ذلك كله عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله أو أمدها لعباده المؤمنين لتعينهم على الثبات ثبات القلب ومن بعد ذلك القدم ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الربط منه، فيقال: فلان رابط الجأش إذا كان لا تفرق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها[٥٢].

السكينة:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ

(٤٧) روح المعاني: ١٥/ ٢٥٨.
(٤٨) التبيان في اقسام القرآن: ٤/ ١٦١.
(٤٩) تفسير البيضاوي: ٤/ ٢٨٥ البرهان: ٣/ ١٨٧، الدر المنثور: ٦/ ٣٩٥، تفسير الواحدي: ٢/ ٨١٣، تفسير ابن ابي السعود: ٧/ ٥.
(٥٠) فتح القدير: ٤/ ١٦١.
(٥١) تذكرة الاريب في تفسير الغريب: ١/ ٥٥، زاد المسير: ٦/ ٢٠٥.
(٥٢) ينظر تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): ٢/ ٣٧١، تفسير القرطبي: ١٠/ ٣٦٥، تفسير الطبري: ١٥/ ٢٠٧.

فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [سورة الفتح: ٤] ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة الفتح: ٢٦].

السكون: ضد الحركة؛ وسكن الشيء يسكن سكونا إذا ذهبت حركته، وكل ما هدأ فقد سكن[٥٣] وهو مصدر يوصف به الواحد والجمع؛ وقد يكون معناه الأهل الذين يسكنون الدار[٥٤].

وسكن الرجل سكت؛ وقيل سكن في معنى سكت، وقوله: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سورة الأنعام: ١٣] قال ابن الأعرابي: معناه وله ما حل في الليل والنهار وقيل الساكن هو من الناس والبهائم خاصة، وقيل سكن هو ما هدأ بعد تحرك وإنما معناه الخلق والله أعلم[٥٥].

والسكينة: الوداعة والوقار وعلى هذا فهي من السكون الذي هو الوقار لا الذي هو فقد الحركة[٥٦]، والسكينة فعيلة من السكون.

وفسرها المفسرون، بأنها الثبات والطمأنينة؛ يقول البيضاوي: أنزل السكينة الثبات والطمأنينة في قلوب المؤمنين حتى ثبتوا حيث تقلق النفوس وتدحض الأقدام، ليزدادوا إيمانا بالشرائع مع إيمانهم بالله واليوم الآخر[٥٧].

وعن ابن عباس: كل سكينة في القرآن، هي الطمأنينة إلا التي في البقرة[٥٨] وقيل هي الطمأنينة عند تنزل الغيب[٥٩] وقيل الرحمة ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم[٦٠].

وقد تصل السكينة درجة حصول اليقين في قلب المؤمن، فعن الواحدي يقول: هي اليقين والطمأنينة ليزدادوا إيمانا بشرائع الدين مع إيمانهم وتصديقهم بالله

(٥٣) لسان العرب: (سكن).
(٥٤) مقاييس اللغة: (سكن).
(٥٥) لسان العرب: (سكن)، تاج العروس: (سكن).
(٥٦) التبيان في تفسير القران: ١/ ٢٢٢ صحيح البخاري: ٤/ ١٧١٢.
(٥٧) تفسير البيضاوي: ٥/ ٣٠٤.
(٥٨) تفسير القرطبي: ١٦/ ٣٦٤، تفسر ابن كثير: ٤/ ١٩٣.
(٥٩) التعاريف: ١/ ٤٢١، معاني القران: ٣/ ٢١٠، تفسير البغوي: ٤/ ١٢٤.
(٦٠) تفسير الطبري: ٢٦/ ١٩٤.

ورسوله[٦١]، وقد وصل بعض المفسرين في تفسيرها إلى جعلها هي مبادئ علم اليقين[٦٢].

نلاحظ مما تقدم، أن هناك تدرجا في تفسير السكينة؛ فهي تمثل رحمة وطمأنينة ويقين.

السلامة: قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٨٩] وقال في [سورة الصافات: ٨٤] ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

السَّلم والسَّلامة: التعري من الآفات الظاهرة والسَلْم الاستسلام و التسَالُم التصَالُح، وقيل هو البراءة، وتَسَّلم منه تبرأ، وقال ابن الأعرابي: السلامة العافية وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه تسلما وبراءة لا خير بيننا ولا شر[٦٣].

والتسليم مشتق من السلامة اسم الله تعالى لسلامته من العيب والنقص، وقيل معناه: إن الله مطلع عليكم فلا تغفلوا، وقيل معناه: اسم السلامة عليك إذا كان اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعا لاجتماع معاني الخيرات فيه وانتفاء عوارض الفساد عنه، وقيل معناه: سلمت مني فاجعلني أتسلم منك من السلامة بمعنى السلام، وسلم من الأمر سلامة: نجا والسلام على من اتبع الهدى، معناه: أن من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه، وسلمه الله من الأمر وقاه إياه[٦٤].

والسلم في اللغة: لدغ الحية فالسليم اللديغ؛ فعيل من السلم والجمع سلمى، وقد قيل هو من السلامة وإنما ذلك على التفاؤل بها خلافا لما يحذر عليه منه، وقيل لأنه مسلم لما به أو اسلم مما به، ووفقا لذلك فالسليم صفة مشبهة تتصف بالثبات على خلاف اسم الفاعل أو صيغة المبالغة.

ويقال: مسلم وفيه قولان، احدهما: هو المتسلم لأمر الله؛ والثاني: هو المخلص وسلم، أي: خلص له والتسلم التصالح

(٦١) التعريفات: ١/ ١٥٩.
(٦٢) تفسير البغوي: ٤/ ١٢٤، الدر المنثور: ١/ ٧٥٧، تفسير الواحدي: ٤/ ١٩٤.
(٦٣) قاموس المحيط: (سلم)، تاج العروس(سلم).
(٦٤) المصدر نفسه: (سلم).

والمسالمة المصالحة[٦٥].

ووصف القرآن الكريم (قلب المؤمن) بالسليم وخصه بالذكر لبيانه إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح واختلف في القلب السليم من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس ليسلم منها أحد، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، وقال أبو عثمان: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة، وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين، وقال الجنيد: السليم في اللغة اللديغ، فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله، وقال الضحاك: السليم الخالص[٦٦].

وعن ابن كثير: أي سالم من الدنس والشرك، يقول ابن سيرين: أن يعلم إن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وعن ابن عباس: أن يشهد أن لا اله إلا الله[٦٧]، وهذا يعنى: إنه سالم من مرض الكفر[٦٨] وعلى هذا التفسير، يقول الطبري: خالص من الشك في توحيد الله والبعث بعد الممات[٦٩].

وقيل السليم من آفات القلوب أو من العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله[٧٠]، فالسليم تعبير عن سلامة القلب كأنه قيل إلا سلامة القلب[٧١] وبهذا يعني بالسليم هنا خلوص النية (نية القلب) أي صفته إذ جعل هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف أو مستثنى منه، إذ التقدير: لم ينفع مال ولا بنون أحدا من الناس إلا من كانت صفته هذه [٧٢] ويحتمل أن يكون بدلا من فاعل ينفع فيكون مرفوعا، وخص القرآن الكريم القلب ها هنا، لأنه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد إذ الفساد بالجوارح

(٦٥) المصدر نفسه: (سلم).
(٦٦) تفسير القرطبي: ١٣/ ١١٤ -١٥/ ٩١.

(٦٧) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٤٠ -٤/ ١٣.
(٦٨) روح المعاني: ١٩/ ١٠٠.
(٦٩) تفسير الطبري: ١٩/ ٨٧، الدر المثور: ٦/ ٣٠٧-٣٠٨.
(٧٠) تفسير ابن أبي السعود: ٧/ ١٩٧.
(٧١) المصدر نفسه: ٦/ ٢٥١.
(٧٢) فتح القدير: ٤/ ١٠٦ تفسير الثعالبي: ٢/ ١٤٨، معاني القران: ٢/ ٤٥١.

لا يكون إلا عن قصد فاسد بالقلب فإن اجتمع مع ذلك الجهل فقد عدم السلامة من الوجهين[٧٣]، ونود أن نختم خلاصة حديثنا عن هذه المادة بقولنا: إن السليم صفة مشبهة تثبت على القلب المؤمن فتخلصه من كل الآفات وتخلص نيته لله لأنه قلب متجه إلى الله قولا وفعلا.

الشرح:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [سورة الانشراح: ١] وقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥] ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[سورة النحل: ١٠٦] وقال أيضا ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾[سورة طه: ٢٥] ومنه قوله ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [سورة الزمر: ٢٢].

الشرح في اللغة: الكشف والقطع، فالشَّرح والتَشريح قطع اللحم عن العضو قطعا، والقطعة منه الشُّرحة، وقد شرحته وشرّحته بالتضعيف هو نحو من التشريح، وهو ترقيق البضعة من اللحم حتى يشف من رقته[٧٤].

أما الأصل الثاني: وهو الكشف، فيقال شرح فلان أمره، أي: أوضحه وشرح المسألة بينها وشرح الشيء شرحه شرحا، أي: فتحه وبينه وكشفه، وتقول: شرحت الغامض أي: فسرته[٧٥].

وقد جاء الشرح في القرآن الكريم متصلا بالصدر الذي هو محل القلب لدلالته على انشراح القلب والصدر الذي هو محل القلب للاستزادة في طلب السعة والاتساع إلا أن الاستعمال القرآني لهذه اللفظة جاء ليعبر عن قلوب المؤمنين أكثر من قلوب الكفار مع اشتراكهما في الاستعمال، فقد عبر عن قلب الكافر في آية واحدة وهي [سورة النحل: ١٠٦] حيث قال: (شرح بالكفر صدرا)، وقد فرق بين لفظتي الشرح والصدر بلفظة الكفر وصرح بها في الآية، وهذا يدل على أن أصل الشرح: هو الإيمان والإسلام، ونسبته إلى الله عز وجل

(٧٣) احكام القران: ٢/ ٢١٤.

(٧٤) لسان العرب: (شرح).

(٧٥) ينظر مقاييس اللغة: (شرح).

فالشرح الفتح ويكون بإذهاب ما يصدر عن الإدراك والله تعالى فتح صدر نبيه للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصد عن إدراك الحق حيث، قال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، أي: قد فعلنا ذلك(٧٦) وهذا تقدير وحقيقة الاستفهام التقرير، فالاستفهام إنكار والإنكار نفي؛ وقد دخل على النفي ونفي النفي إثبات، ومن أمثلة ذلك قوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[سورة الزمر: ٣٦]، وقد فسره الطبري بالتليين قال: نلين قلبك ونجعله وعاء للحكمة(٧٧) في حين نجد البيضاوي يفسره بقوله: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل، أو يسرنا لك تلقي الوحي بعدما كان يشق عليك(٧٨).

ومن هنا يتحدد لدينا أن الشرح لفظ عام يضم قلب المؤمن والكافر إلا انه يستعمل لقلب الكافر بحدود أضيق، وإن الشرح من لدنه في حين الشرح لقلب المؤمن من لدن الله عز وجل؛ ولذا فقد صرح بلفظ الكفر في الآية التي هي محل الشاهد، في حين أن الآيات التي تخص عموما المؤمن والرسول ﷺ ولا يحتاج إلى التصريح لأنه الاستعمال لا يقتضي ذلك لان الأصل في الشرح هو للإيمان وليس للكفر إلا إذا أراد الإنسان له ذلك وحينما يكون للكفر فهو على غير المعتاد.

الطمأنينة:

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠] ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة الأنفال: ١٠] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[سورة الرعد: ٢٨].

طمأن من طأمن الشيء، سكنه والطمأنينة السكون؛ واطمأن الرجل اطمئنانا وطمأنينة، أي: سكن؛ وذهب سيبويه إلى أن اطمأن مقلوب وإن أصله

(٧٦) ينظر تفسير البيضاوي: ٥/ ٥٠٤ تفسير الطبري: ٣٠/ ٢٣٤.
(٧٧) الاتقان: ٢/ ٢٧٩ تفسير القرطبي: ٢/ ١٠٥.
(٧٨) تفسير البيضاوي: ٥/ ٥٠٤.

من طأمن وخالفه أبو عمرو فرأى ضد ذلك وحجة سيبويه أن طأمن غير ذي زيادة واطمأن ذو زيادة والزيادة إذا لحقت الكلمة لحقها ضرب من الوهن لذلك[٧٩].

وذلك لمخالطتها شيئا ليس من أصلها مزاحمة لها وتسوية في التزامه بينها وبينه.

فالاطمئنان: هو السكون والاستئناس وبذكر الله تسكن وتستأنس قلوب المؤمنين[٨٠].

فيكون بذكر الله رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته[٨١]، والحقيقة أن ذكر الله هي حال ولسان المؤمن على دوام الوقت، وعلى هذا جاء في التبيان: ذكر يجوز أن يكون مفعولا به، أي: الطمأنينة تحصل لهم بذكر الله ويجوز أن يكون حالا من القلوب، أي: تطمئن وفيها ذكر الله[٨٢]، فالطمأنينة حالة تحدث لقلب المؤمن من جراء الخوف أو الخشية الدائمة من الله، ولذا فهي تحل بمجرد ذكره عز وجل، والاطمئنان لا ينافي الوجل والخوف لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجامع الخوف والى هذا ذهب ابن الخازن ووفق بعضهم بين الآيتين بأن الذكر في أحداهما ذكر رحمة وفي الأخرى ذكر عقوبة فلا منافاة بينهما[٨٣].

والوجل فيما يبدو من تحقيقات اللغويين هو أعلى مرتبة من الطمأنينة، فالوجل شدة الخوف[٨٤] ويذهب أبو هلال العسكري الى أن الْخَوْف خلاف الطُّمَأْنِينَة، وَجل الرجل يوجل وجلا، وَإِذا قلت وَلم يطمئن، وَيُقَال أَنا من هَذَا على وَجل وَمن ذَلِك على طمأنينة، وَلَا يُقَال على خوف فِي هَذَا الْمَوضع وَفِي الْقُرْآن ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي إِذا ذكرت عَظمَة الله

(٧٩) لسان العرب: (طمأن).
(٨٠) ينظر تفسير الطبري: ١٣/ ١٤٥ روح المعاني: ١/ ٢٩٧.
(٨١) ينظر تفسير القرطبي: ٩/ ٣١٥، تفسير البيضاوي: ٣/ ٣٢٩.
(٨٢) الدر المنثور: ٤/ ٦٤٢.
(٨٣) ينظر التبيان: ٢/ ٦٤، روح المعاني: ٩/ ١٦٥.
(٨٤) لطائف الاشارات(تفسير القشيري): ١/ ٦٠٢.

وَقدرته لم تطمئِن قُلُوبهم إِلَى مَا قدموه من الطَّاعَة وظنوا أَنهم مقصرون فاضطربوا من ذَلِك وقلقوا فَلَيْسَ الوجل من الْخَوْف فِي شَيْء وَخَافَ مُتَعَدٍّ ووجل غير مُتَعَدٍّ وصيغتاهما مُخْتَلِفَتَانِ أَيْضا وَذَلِكَ يدل على فرق بَينهمَا فِي الْمَعْنى[٨٥].

وقد خص القرآن الكريم حلول الطمأنينة في القلب لأنها مما تلينه وترققه لذكر الله وهذا فيه إشعار بأن الكفار ليس لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى[٨٦].

ذلك أن النفوس تضطرب بظهور صفاتها وأحاديثها وتطيش فيتلون القلب ويتغير لذلك فإذا تفكر في الملكوت ومطالعة أنوار الجمال والجبروت استقر واطمأن.

ويبدو من سائر أنواع الذكر إنما يكون بعد الاطمئنان والاطمئنان يتوجب حالة من السكون والراحة الدائمة في القلب وهذه تتحصل بذكر الله فيستأنس بهذه الحال قلب المؤمن من بعد القلق والاضطراب من خشيته.

الطهارة:

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ [سورة المائدة: ٤١] وجاء لفظ أطهر في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[سورة الأحزاب: ٥٣].

الطهر: نقيض النجاسة، طهر كنصَر وكرُم؛ فهو طاهر وطهر و طهير والأطهار، أيام طهر المرأة، وطهر ه بالماء غسله به؛ والاسم الطُهرة والمطهَر والمطهِر بالفتح والكسر، إناء يتطهر به؛ والطهور المصدر واسم ما يتطهر به. والمطهر وطهره كمنعه: أبعده وطهران بالكسر، والتطهر التنزه والكف عن الإثم وأطهر أصله: تطهر وتطهرا أدغمت التاء في الطاء واجتلبت ألف الوصل[٨٧].

والتطهر التنزه والكف عن الإثم وما لا يحتمل؛ ورجل طاهر الثياب، أي: منزه بمعنى يتنزهزن من الأدناس ويقال

(٨٥) ينظر الفروق اللغوية، : ١/ ٢٤٣.
(٨٦) تفسير ابن أبي السعود: ٥/ ٢٠.
(٨٧) القاموس المحيط: (طهر)، لسان العرب: (طهر).

انه لطاهر الثياب أي ليس بذي دنس في الإخلاف.

وجاء تطهير القلب في القرآن الكريم مقترنا بصيغة فعيلة وأخرى اسمية وهي صيغة اسم التفضيل (اطهر) فأراد بصيغة الفعل التطهير التخلص من الدنس والكفر ووسخ الشيطان بطهارة الإسلام[٨٨]، أو التخلص من رجس الكفر وخبث الشيطان والضلالة لانهماكهم فيها[٨٩].

أو يطهر قلوبكم من الطبع عليها والختم كما طهرت قلوب المؤمنين[٩٠].

أما لفظ (أطهر) فأراد به أطهر من الريب والشك[٩١]، أو أطهر من الخواطر النفسانية الشيطانية[٩٢].

وأخيرا فطهارة القلب صفاء ونقاء القلب من كل الأدناس والخبائث وهي هداية القلب وخلوص نيته.

وفرق العلماء بَين الطَّهَارَة والنظافة:

أَن الطهار تكون فِي الْخلقَة والمعاني لِأَنَّهَا تَقْتَضِي مُنَافَاة الْعَيْب، يُقَال: فلَان طَاهِر الْأَخْلَاق، وَتقول: الْمُؤمن طَاهِر مطهر، يَعْنِي أَنه جَامع للخصال المحمودة والكافر خَبِيث لِأَنَّهُ خلاف الْمُؤمن، وَتقول: هُوَ طَاهِر الثَّوْب والجسد؛ والنظافة لَا تكون إِلَّا فِي الْخلق واللباس، وَهِي تفِيد مُنَافَاة الدنس وَلَا تسْتَعْمل فِي الْمعَانِي، وَتقول: هُوَ نظيف الصُّورَة، أَي: حسنها ونظيف الثَّوْب والجسد؛ وَلَا تَقول نظيف الْخلق[٩٣] والرجس وَالنَّجس متقاربان، لَكِن الرجس أَكثر مَا يُقَال فِي المستقذر طبعا، وَالنَّجس أَكثر مَا يُقَال فِي المستقذر عقلا وَشرعا[٩٤].

نفي الغلظ:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩].

(٨٨) تفسير الطبري: ٦/ ٢٣٨، تفسير البيضاوي: ٢/ ٣٢٦.

(٨٩) تفسير ابن أبي السعود: ٣/ ٣٨، الدر المنثور: ٧/ ٢١٣ روح المعاني: ٦/ ١٣٩.

(٩٠) تفسير القرطبي: ٦/ ١٨٢.

(٩١) تفسير البغوي: ٣/ ٥٤٠ تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٨٤، تفسير ابن أبي السعود: ٧/ ١١٣.

(٩٢) ينظر تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٨٤، تفسير ابن أبي السعود: ٧/ ١١٣.

(٩٣) الفروق اللغوية: ١/ ٢٦٤.

(٩٤) الكليات: ٤٧٩.

الغلظ هو ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك، وقد أخذ من غلظ يغلظ غلظا أي صار غليظا واستغلظ مثله وغلاظ والأنثى غليظة وجمعها غلاظ.

وهو من غلظت السنبلة واستغلظت خرج فيها القمح فاستغلظ النبات والشجر صار غليظا كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه وكذلك جميع الشجر إذا استحكمت نبتته وارض غليظة غير سهلة وربما كنى عن الغليظ من الأرض بالغلظ و هومن الصلب من غير حجارة [٩٥].

ورجل غليظ فظ فيه غلظة وفظاظة و قساوة وشدة ومنه أمر غليظ صعب وأيضا ميثاقا غليظا أي مشدودا وعلى هذا فالغلظ غير القساوة لان الغلظ حالة في الطبع والخلق وغيره[٩٦].

وعلى هذا نفى القران الكريم الغلظ و الفظاظة عن الرسولﷺ يقول البيضاوي: الغلظ نقيض الرأفة وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه وليس ذلك في اللسان.

وفسر القرطبي الغلظ خشونة الجانب فهي ضد واخفض جناحك لمن اتبعك، أي: لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا من حولك[٩٧].

والمفسرون يذهبون إلى أن الغلظ هو القسوة في الطبع والفعل وليس في القول ودليلهم في ذلك ان القران الكريم جمع بين الفض والغليظ في الآية.

فقال لو كنت فظاً غليظ القلب فالفظ هو الجاني في منطقه ومقامه وقيل الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولا وفعلا وغلظ القلب عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة[٩٨].

الخاتمة:

العناية بدراسة الألفاظ القرآنية له الأثر البالغ في الوقوف على الدقة في الإستعمال القرآني للفظة وكيفية التعامل معها، فما يصح في موضع ما قد لا يكون

(٩٥) لسان العرب: (غلظ).
(٩٦) تفسير البيضاوي: ٢/ ١٠٨.
(٩٧) تفسير القرطبي: ٨/ ٨٠٥.
(٩٨) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٢١.

بدقة وبلاغة موضع آخر؛ وهذا من أسرار النظم القرآني الكريم.

لقد حاولنا بيان الفرق اللغوي والدلالي والاستعمالي بين كل من لفظ القلب والفؤاد والصدر، بعد أن وقفنا على معنى كل منهم في المعجمات العربية واستدللنا على ذلك بمواضع من القرآن الكريم لإثبات الفروق الدلالية والاستعمالية.

ومن مضامين البحث جرد الألفاظ التي وصف بها القلب المؤمن في القرآن الكريم (وهو محور البحث) وتثبيت موضع الشاهد من كل ذلك، فوقف البحث على دلالات ومعان كثيرة بينتها في ثنايا البحث، ومن الله التوفيق.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. الاتقان: اتقان ما يحسن من الاخبار الدائرة على الالسن، محمد بن احمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ)، تح: د. خليل محمد الغزي، دار الفاروق الحديثة، ط١، ١٤١٥هـ.

٢. اعجاز القرآن، ابو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة.

٣. الاعجاز الطبي في القرآن: د. السيد الجميلي، مكتبة التحرير، ط٣.

٤. أوضح التفاسير، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (١٤٠٢)، المطبعة المصرية، ط٦، ١٩٦.

٥. البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١ هـ.

٦. التبيان في اعراب القران: ابو البقاء محمد بن عبد الله بن ابي عبد الله بن ابي البقاء (ت ٦١٦هـ) تح: علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية.

٧. التبيان في اقسام القران: محمد بن ابي بكر ايوب الزرعي (ت ٧٥١هـ) دار الفكر بيروت.

٨. التبيان في تفسير غريب القرآن، شهاب الدين احمد بن محمد الهائم المصري (ت ٨١٥ هـ)، تح: د. فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث

بطنطا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢ م.
٩. تذكرة الاريب تفسير الغريب جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧ هـ) تح: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٤ م.
١٠. تفسير ابن ابي السعود (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم) أبو السعود، (ت ٥٩٧ هـ) ابو السعود العمادي محمد بن محمد (ت ٩٨٢ هـ)، دار احياء التراث العربي –بيروت.
١١. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن) ابو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠هـ) تح: عبد الرزاق المهدي دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ.
١٢. تفسير الثعالبي، احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي ابو اسحاق (ت٤٢٧هـ) تح: الامام ابي محمد بن عاشور ونظير الساعدي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
١٣. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ابو جعفر الطبري (ت٣١٠ هـ) تح: احمد محمد شاكر ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
١٤. تفسير مجاهد، ابو الحجاج مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٤ هـ) تح: محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الاسلامي الحديثة، ط١، مصر، ١٩٨٩ م.
١٥. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) أبو البركات عبد الله بن احمد، راجعه محي الدين ديب، دار الكلم الطيب، ط١، بيروت، ١٩٩٨ م.
١٦. تفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن احمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) تح: الشيخ عادل احمد عبد الموجود وآخرون، قدمه عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٤ م.
١٧. الحجة في القراءات السبع: الحسين بن احمد بن خالويه ابو عبد الله (ت

٣٧٠هـ)، تح: عبد العال سالم، دار الشروق، بيروت، ١٤٠١هـ.
١٨. الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (ت٩١١) دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م.
١٩. روح المعاني في تفسير القران: محمد الالوسي، تح: ابو الفضل ابراهيم، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٢٠. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابو الفرج بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تح: عبد الرزاق المهدي نشر دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٤٢٢ هـ.
٢١. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق-بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ.
٢٢. الفروق اللغوية، ابو هلال، الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ)، تح: محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
٢٣. كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الإربلي (ت ٦٩٣هـ) تح: علي آل كوثر، مركز الطباعةوالنشر للمجمع العالمي لاهل البيت، دار التعارف، بيروت، ٢٠١٢.
٢٤. لطائف الاشارات (تفسير القشيري) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تح: ابراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، مصر.
٢٥. مشكل اعراب القران: مكي بن ابي طالب القيسي: تح: د. حاتم الضامن بيروت، ١٤٠٥.
٢٦. معاني القران الكريم، لابي جعفر النحاس، تح: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المركة، ط١، ١٤٠٩ هـ.